المحاضرة الثالثة :

الرواية الواقعية " الأرض " لعبد الرحمن الشرقاوي

" الأرض ملحمة عبد الرحمن الشرقاوي "

"الأرض" هي الملحة " لعبد الرحمن الشرقاوي " الخالدة ... أبطالها يسكنون ذاكرتنا " محمد أبو سويلم " وعبد الهادي ، وصيفة و محمد أفندي ، الشيخ يوسف والعمدة هي شخصيات حقيقية أكثر من كونها روائية ، " وعيد الرحمن الشرقاوي " من الكتاب الذين كرسو حياتهم الأدبية للدفاع عن الفلاحين ضد الظلم الواقع عليهم في تلك الفترة ويعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه وأقربها إلى القارئ فمن خلال هذه الرواية إستطاع " الشرقاوي " أن يصور لنا الحياة في الريف المصري في مطلع القرن العشرين بكل ما فيه من سيئات وسلبيات قبل المزايا والحسنات ، مثل : العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج ...

* السيرة الذاتية : لمحة عن الكاتب " عبد الرحمن الشرقاوي " :

ولد عبد الرحمن الشرقاوي في 10 نوفمبر 1921 بقرية الدلاتون محافظة المنوفية شمال القاهرة إبتدأ تعليمه في كتاب القرية ثم انتقل إلى المدرسة الحكومية حيث تخرج من كلية الحقوق فعمل في الصحافة في مجلة " الطليعة " في البداية ثم مجلة الفجر وعمل بعد ثورة 22 يوليو في صحيفة الشعب ثم صحيفة الجمهورية ، ثم شغل منصب رئيس تحرير (روز اليوسف) عمل بعدها في جريدة الأهرام ، كما تولى عددا من المناصب الأخرى منها أمانة المجلس الأعلى للفنون والأداب.

من أهم أعماله رواية (الأرض سنة 1954) ، (قلوب خالية سنة 1956) ثم (الشوارع الخلفية سنة 1958)

وأخيرا (الفلاح سنة 1967) ، تأثر الشرقاوي بالحياة الريفية وكانت القرية المصرية مصدر إلهامه وانعكس ذلك على أول رواياته " الأرض" التي تعد أول تجسيد واقعي في الإبداع الأدبي الحديث وقد تحولت هذه الرواية إلى فيلم سينمائي شهير بنفس الإسم من إخراج " يوسف شاهين 1970 م " ومن أشهر مسرحياته (الحسين ثائرا) ومسرحيته (الحسين شهيدا) و " مأساة جميلة " عن الجزائرية جميلة بوحيرد ومسرحية (الفتن مهران) و (النسر الأحمر) و(أحمد عرابي) أما في مجال التراجم الإسلامية فقد كتب " محمد رسول الحرية " وعلى إمام المتقين ، والفاروق عمر ، كما شارك في سيناريو فيلم الرسالة بالإشتراك مع " توفيق الحكيم " و " عبد الحميد جودة السحار".

حصل عبد الرحمن الشرقاوي على جائزة الدولة التقديرية في الأداب سنة 1974 بالإضافة إلى وسام الأداب والفنون من الطبقة الأولى ، توفي الشاعر والأديب والصحفي والمفكر الإسلامي " عبد الرحمن الشرقاوي في 24 أوت سنة 1987 م

كان الريف من أهم الموضوعات التي رددها الكتاب في أثارهم بما فيه من صفاء وطبيعة لم تفسدها المدينة المصطنعة وبما فيه من ظلم وتعسف وتمييز يشوه وجهه (الريف) ويعكر صفائه ، قل ما نجد شاعرا أو كاتبا لم يكتب عن الريف وما يعانيه القرويون من ظلم وحرمان أو ما يزين الريف من طبيعة ساحرة وخلابة خاصة الشعراء (الرومانسيين) الذين تفننو بالريف و جماله والصعوبات التي يواجهها الفلاحون الذين يقضون معظم وقتهم في المزارع مقابل أجر زهيد لا يسد جوعهم ولا يقضي حاجياتهم وإن معظم كتاب أدب الريف وخاصة (الشرقاوي) الذي عاش تجربة البسطاء في قريتهم بإحساس متزايد بكرهه الظلم وحب العدل وضرورة الكفاح في سبيل الحرية وبعبارة أخرى إن الظروف

السائدة على البيئة كانت باعثة فساهمت في خلق هذه الأثار وأن الكتاب ذاقوا وأحسو ما كتبوه فالبيئة تلعب دورا أساسيا في تكوين شخصية الأديب وهذا ما نراه عمليا في (عبد الرحمن الشقراوي)، الذي عاش في بيئة مضطربة تعاني الفقر والحرمان، حيث ذاق الثلاثي المرعب المتمثل في الفقر والجهل والمرض بالإضافة إلى الإستعمار الإنجليزي، لم يكن الشرقاوي بمعزل عن مجريات الواقع بل على العكس نراه أول كاتب مصري تخلص من الفضاء الرومنسي ومال إلى الروايات الواقعية كاتبا رواية (الأرض) وهي أول رواية واقعية مكتوبة عن الريف ، تأثر (الشرقاوي) بالشيوعية وإنتمائه إلى اليسار حيث كان عضوا في جماعة أنصار الإسلام اليسارية أنذاك ، كان عبد الرحمن الشرقاوي واحدا من الكتاب العرب المسلمين الذين فهمو الإسلام على حقيقته، فقد أدرك أن جوهر الإسلام هو مساندة الفقراء والمستضعفين في الأرض، وظل " الشرقاوي " إشتراكي النزعة رغم إستنارته الإسلامية ولكن الإشتراكية التي تؤمن بالإسلام وتقيم فرائض الدين من الصلاة والصوم والزكاة .

تعتبر الرواية إحدى الأجناس الأدبية التي صدى عن ظروف المجتمع أو الأفكار التي تكمن في الذهن ، وهي فن أدبي تستخدم كوسيلة للتعبير عن واقع الحياة وقضايا المجتمع ، وعن مشاكل الإنسان وأزماته وكما أنها تحتوي على عناصر مختلفة مثل : الشخصية ، الزمان ، المكان ، السرد والحوار ، الحدث ، الحبكة والأسلوب والأهداف بالإضافة إلى الكثير من الشخصيات لكل منها بواعثها وانفعالاتها الخاصة "الرواية من أكثر الفنون الأدبية التي لها قدرة على التعبير عن أزمات الإنسان وقضايا الواقع"

ومن هنا يعتبر أدب الريف من الموضوعات الهامة في أداب الأمم على اختلاف مواقعها واختلاف عصورها لأنه يحكي لغة الطبيعة والفطرة ، حيث تكون فيه الطبيعة الإنسانية بعيدة عن فوضى المدينة وزيفها ، لذلك تعتبر الرواية الواقعية عن الريف هي العمل الأكثر تفرجا من الناحية الفنية وهي الأكثر عددا من الناحية الكمية.

أدب الريف في مصر:

بدأت بوادير الأدب الريفي في مصر تظهر عند الدكتور " محمد حسين هيكل " الذي كتب أول رواية ريفية عربية والتي تسمى (زينب) عني عن التعريف أن " حسين هيكل " لعب دورا أساسيا في الإتجاه الريفي للرواية العربية عامة وللرواية المصرية خاصة ، هناك الكثير من الكتاب المصريين الذين تحدثو عن الريف ومظاهره واهتموا به منهم : (محمد حسين هيكل) في " زينب" ، (طه حسين) في " دعاء الكروان" ، (محمد عبد الحليم عبد الله) في " لقيطة " و"بعد الغروب" و"شجرة اللبلاب" و(توفيق الحكيم) في " يوميات نائب الأرياف" و (نجيب محفوظ) في "ميرامار" و(عبد الرحمن الشرقاوي) في رواياته الثلاثة " الأرض" و "قلوب خالية" و "الفلاح" .

وتصور الرواية الريفية المصرية الفلاح بريئا فقيرا ، والإقطاعي ظالما مستغلا ، فتصوير الجرائم الإقطاعية ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم هو الموضوع الأهم والأول في الرواية المصرية ، فالفلاح في الريف يقضي معظم وقته في الأرض لكي يأكل من ثمرة جهده وعرق جبينه ولكن هيهات أن يتحقق هدفه ويرى ثمرة عمله لأن هذه الثمرات لاتدخل بيوت الفلاحين بل ترسل إلى الأسواق لكي يستفيد من بيعها الملاك وأبناء المدينة أما الفلاحون يتحسرون.

وهذا ما يشوه صورة الريف ويحولها إلى مستنقع ومع كل هذه المظالم لم يستسلم الفلاح ولم تخمد إرادته وسعيه في سبيل تحقيق الحرية والعدل وهذا ما نراه في رواية " الأرض " للشقراوي".

تتحدث رواية " الأرض " عن التمييز الطبقي الذي تعاني منه القرى المصرية مثل بقية قرى الشرق الأوسط و" الشرقاوي " في " الأرض " يعيش صراعا مؤلما بين مايشاهده من قسوة الحياة في الريف.

قراءة في رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي:

اعتبر العديد من النقاد رواية (الأرض) النموذج الأبرز لمذهب الواقعية الإشتراكية حيث قدمت القرية المصرية وجسدتها لأول مرة وبعيدا عن النظرة الرومنسية التي صورها جنة زاهية ينعم فيها الفلاح مرتاح البال ، ليضعنا (الشرقاوي) في الأمر الواقع على ما كان يصيب الريف وأهله من تناقضات الإقطاع والإحتلال والفساد والظلم التي وصلت بهم إلى حدود الصراع من أجل البقاء ، فيمكننا القول أن الشرفاوي في روايته " الأرض " أعاد رسم صورة القرية المصرية بعيدا عن الرومانسية التي صورتها (زينب) التي تعتبر أول رواية مصرية ، يقول الشرقاوي في " الأرض" كنت أسترجع دائما كتاب " الأيام " و (إبراهيم الكاتب) و " زينب "، كان الشرقاوي يرى العديد من أطفال قريته أكل الذباب عيونهم كالقرية التي عاش فيها صاحب " الأيام " يقول [تمنيت لو أن قريتي أكل الذباب عيونهم كالقرية التي عاشت فيها " زينب "الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء والحكومة لا تحرمهم من الري ولا تحاول أن تنتزع منهم الأرض أو ترسل إليهم رجالا بملابس صفراء - الهجانة - يضربونهم بالكرابيج ، والأطفال فيها لايأكلون الطين ولا يحط عليهم الذباب على عيونهم الجميلة] ، " وكانت قريتي هي الأخرى جميلة كقرية " زينب " فأشجار التوت تمتد على جسدها وتلقي ظلالها المتشابكة على ماء النهر وكان النهر في وقت الظهر يبدو صفحة من فضة تحته أشعة الشمس وفي الأصيل يبدو كالذهب وفي الليل مختلجا قاتما يتسكع في طريقه إلى المجهول كالحياة في قريتي.

ويقول : ولم تعرف قرية (زينب) فرحة النصر وهي تتحدى القضاء والإنجليز والعمدة والحكومة وتنتصر لبعض الوقت ويعقد (الشرقاوي) مقارنة بين " زينب " و "وصيفة " -جميلة القرية - فيقول " وزينب التي لم تكن أبدا على الرغم من كل شيئ جميلة كوصيفة ... لم تذهب إلى قاعة الطحين ذات يوم لتعود إلى أمها باكية كما صنعت (وصيفة) عندما رأيتها لأول مرة بعد أن إنقطعت عن رؤيتها طوال شهور الصيف " .

تدور أحداث الروية في قرية (الشرقاوي) وبالتحديد في أوائل الثينيات من القرن الماضي حينما كانت كانت الأزمة العالمية تضرب بشدة دول العالم ، وفي نفس الوقت الذي تضرب فيه حكومة (صدقي باشا) الجماهير التي تطالب بالحرية والإستقلال ، كانت حكومته أسوأ الوزارات التي حكمت البلاد والعباد بالحديد والنار فقد حلت البرلمان وصادرت الحريات فكانت العداوة الدائمة بين الجماهير وحكومة حزب الشعب وكان من ضحايا الحكومة (محمد أبو سويلم) شيخ الحقراء حينما رفض تزوير الإنتخابات بتسجيل أسماء الموتى في الكشوف ، فكان جزاءه الفصل من وضيفته فلم يتبقى له سوى الأرض يتقوت بها ... فكيف يتصرف وقد أراد (محمود بيه) وهو يمثل صورة الإقطاعي الظالم تقليل نوبة ري الأرض في القرية من 10 أيام فقط إلى خمسة أيام فقط ليحرم أرض الفلاحين من المياه لتحظى بها أرضه الواسعة ، فكيف يتصرف الفلاحين البسطاء حينما تتعرض أرضهم للموت عطشا ؟ وهنا يتحدى أبو سويلم وعبد الهادي ودياب وفلاحين القرية قرارات حكومة الشعب ويكسرو جسر (النزعة) لسقي أرضهم وتأتي الحكومة بالفعل لتأخذ جميع العصاة إلى سجن المركز حيث يتعرضو لأشد أنواع التعذيب ولاتنتهي أزمة الري حتى يتفاجأ الفلاحين بلعبة جديدة حبكها (محمود بيه) فقد جمع الفلاحين بحجة حل المشكلة وقدمها إلى الحكومة باعتبارها طلبا لمد طريق جديد يصل ما بين قصره الجديد وعاصمة الإقليم ...

وكانت القرية تعاني الهاجس الخطير وهو الزراعية الجديدة التي كانت بمثابة الخنجر الذي سيقتل الحياة في أرض (أبو سويلم) ، وذلك من خلال إغتصاب الأرض .

يمثل (أبو سويلم) شخصية الفلاح ، المتمسك بأرضه ، الفلاح الصامد الذي يستطيع مواجهة كافة القوى لكي يظل متشبثا بأرضه وفيا لمبادئه لا تغيره الشين والأيام وفي عام 1919 رفع الفلاحين الفؤوس

في أكبر ثورة شعبية في تاريخ مصر كان (أبو سويلم) بطل الثورة في قريته وشاركه الكفاح الشيخ يوسف والشيخ حسونه والشيخ الشناوي [شيخ المسجد].

(الشيخ يوسف) لم يكمل تعليمه في الأزهر وفتح دكانا في القرية وكان الدكان الوحيد فيها واستغل حاجة الناس وتحول إلى برجوازي لا يراعي ما تمر به قريته من ظروف تهدد حياتها بل كان يسعى بجد إلى إحتلال منصب العمدة لكي يربي القرية من جديد ويبيع أيضا لعمال الزراعة دون حرج والذي أثار غضب أهل القرية والشيخ (الشناوي) وقدمته الرواية كمثال لرجل الدين يتعاون مع الحاكم الظالم ويستهل له ظلمه ، فلسانه سليط ، يسعد بالأكل بجوار من بيده السلطة - أما (الشيخ حسونة) أقرب صديق لقلبي [أبو سويلم] عمل مدرسا وشارك في ثورة 1919 ، تم نقله إلى مكان بعيد عن قريته لأنه كان من المعارضين ولكنه سرعان ما يتخلى عن القرية في أشد محنتها ولاينتظر حتى تنتهي أزمة الزراعية التي ستلتهم أرض صديقه ، أما في الفيلم فلا يكتفي (يوسف شاهين) بذلك بل يقدم (الشيخ حسونة) في صورة الخائن لأهمل بلده بعد ما تخلى عن قريته ويتفق مع الظالم الإقطاعي (محمود بيه) مقال أن تتفادى الزراعية أرضه ، لم يتبقى مع (محمد أبو سولم) أحد فلقد تخلى عنه الرفاق القدماء وفشل تحالف القرية في الوقوف أمام بطش الحكومة ، يحاول (عبد الهادي) و(وصيفة) و (أبو سويلم) و (محمد أفندي ودياب) جمع القطن قبل أن يحمصه عمال الزراعية فتضيع السنة هباءا منثورا على (أبو سويلم) الفلاح الثائر ولكن رجال الشرطة لم يتركوه في حالة وأقتادوه إلى السجن.

ضاعت الأرض من (أبو سويلم) ويقدم الشرفاوي نهاية تقول أن (محمد أبو سويلم) لن يستسلم أما الفيلم فقد قدم نهاية مختلفة كانت أكثر روعة وأفضل نهايات أفلام (يوسف شاهين).

والتي كانت اللقطة الختامية لمحمد سويلم مكبل بالحبال والخيل تجره على الأرض وهو يحاول التشبث بجذورها فمحمد أبو سويلم فضل أن يضحي بروحه على أن يرى أرضه تغتصب أمام عينيه

ومن هنا يمكننا القول بأن صورة القرية والفلاح في رواية الأرض ماهي إلا صورة للمجتمع المصري والمقصود بصورة الفلاح هنا هي صورته الفكرية والعقائدية وتفاعله مع المجتمع كما وصفها (الشرقاوي) في الرواية ، إتخذ المؤلف من الحب محركا دائما للأحداث ومن العاطفة دافعا لها ، فلقد كان حب الأرض هو المتصدر والغالي على حياة أغلب شخوص الرواية.

ومن خلال صفحات الرواية نتعرض لأكثر من صور للفلاح ، فهو المجاهد لأجل نصرة بلاده والفاعل في الحياة السياسية في ثورة 1919 م وهو المناضل ضد الإحتلال الإنجليزي وهو المدافع عن أرضه حتى آخر قطرة دم في وريده ، فهو " محمد أبو سويلم " الذي حارب في صفوف الجيش وهو لا يعرف من يحارب ولماذا يحاربهم ، وإنما لبى نداء الوطن والواجب دون أن يسأله عن الأسباب

هذه الرواية قدمت أكثر من صورة بينت حقيقة الفلاح المصري في لحظات صعبة وقوته وانكساره فهي قدمت صورة كاملة دون تزيين أو محاولة لإخفاء بعض السقطات المجتمعية .

مفهوم الرواية الواقعية:

من أهم وأشهر الروايات المصرية التي تجسدت لفترة الاحتلال ومأساة الفلاحين في الريف المصري في تلك الحقبة ، وتعد ملحمة أدبية خالدة وهي رواية " الأرض " للأديب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي صدرت عام ولأول مرة 1954 م و لقد اعتبرت من طرف النقاد النموذج الأبرز لمذهب الواقعية الإشتراكية.

والأرض هي ملحمة عبد الرحمن الشرقاوي الخالدة فأبطالها يسكنون ذاكرتنا جميعا حيث أضافت الأرض كثيرا إلى الرواية العربية.

وبهذا فإن عبد الرحمن الشرقاوي قدم فيها القرية المصرية بعيدا عن النظرة الرومانسية والذاتية لاجئا إلى الواقعية الإشتراكية على ماكان يصيب الريف وأناسه من تناقضات الإقطاع والحرمان والإحتلال وكذلك الفساد والصراع من أجل البقاء.

أهم رواد الرواية نذكر كما يلي :

ذلك بدايتها حول ثلاث شخصيات رئيسية :

عبد الهادي ومحمد أبو سويلم / ووصيفة

وعدت شخصيات ثانوية نذكر منها :

محمد أفندي/خضرة وعلوافي/الشيخ يوسف/الشيخ الشناوي/العمدة/ودياب/شيخ البلد/محمود بيك/المأمور/الناظرحسونه ، ونجد الشيخ شعبان الذي يتجسد في الثلث الأخير من الرواية والذي يغيب بعد أن يؤدي الدور الذي وجد من أجله في الرواية لدفع الأحداث في منطقة معينة رغم عدم تمهيد المؤلف لظهوره من البداية والذي جاء مباغتا وكذلك الشاويش عبد الله /وجلول البنتر/ عم كشاب سائق العربية الخطور.

الخاتمة:

ومن هنا جاء العنوان : رواية الفلاح ، فلاح الرواية ... الذي يشير إلى العلاقة الأصلية بينه وبين أرضه فالفلاح لايوجد بدون الأرض.

إن الأرض تلعب دورا هاما في هذه الرواية والشرقاوي وسائر الكتاب في أدب الريف ينظرون إلى الأرض نظرة قداسة وإجلال ، لأن الحياة في الريف تقوم على أساس الأرض والعمل فيها والصراع من أجلها.

المراجع :

1. عبد الرحمان الشرقاوي: الأرض
2. https://ktabpdf.com/star/%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D9%82%D8%A7%D9%88%D9%8A
3. ينظر : محبة حاج معتوق : أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية ، دار الفكر ،الطبعة الأولى ،لبنان ،بيروت 1994 .
4. روجر آلن : الرواية الغربية ،ترجمة : حصة إبراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر 1997 .
5. ينظر : حامد أبو أحمد الواقعية السحرية في الرواية العربية ،المجلس الأعلى للثقافة.